

المنهجية هو اعتماد المقوم البيولوجي ونعني به احتكام ابن خلدون إلى بعد المادة في ظواهر الوجود عامة وظواهر الحياة الإنسانية على وجه مخصوص، وليس لهذا الاستناد - في تقديرنا - ما خيّل لبعضهم من نزعة مادية بالمعنى الذي يبيىء للمادة منزلة الحكم المفسر لعوارض الوجود ، والذي تنتفي معه سلطة ما وراء المادة سواء في تحريك السلوك ، أو تفسير العقل للسلوك، ولم يكن ذلك من بعض هؤلاء الباحثين إلا إسقاطا مرآويا سببه جموح القراءة المسلطة على الحدث بما تأخر نشوؤه في الزمن عن الحدث نفسه، ولسنا نتهم منهجا ما في البحث ولا ندين رؤية مخصوصة في تأويل الميراث الفكري، وإثما مقصدنا أن يتوضح خط الفصل بين الاستنطاق الرأسي الهادف إلى إعادة كشف النص الفكري ، والتأويل الصادر عن توظيف القراءة توظيفا فكريا أو عقائديا .

فالمقوم البيولوجي قد كان مستندا إختباريا تعامل معه ابن خلدون تعامل المخبري مع لوحات التشريح ، لأن حيرته القصوى تركزت على تحويل التخمين إلى مشاهدة عينية بغية إرساء قواعد التصور التجريبي ، لذلك كان مفهوم التجربة أو المعاينة ذا مرتبة غالبية في تفكير واضح علم العمران ، ولا نكاد نتردد في أن ثمرة هذا المقوم البيولوجي قد تجسّمت في إيقافه ابن خلدون على قانون جوهرى له من العمق والشمول ما للكليات أحيانا ، ألا وهو قانون الحاجة . ولو أخذت الفكر الخلدوني في مظهره الاستقرائي لوجدته نسيجا متظافرا : لحمته اقتضاء الحاجة في الوجود، وسداه لإرضاء الحاجة بغية الوجود، وبين تحتم الحاجة وتعين سدها يتراءى نموذج الحياة